ثورة الحسين: الزخم المتجدد

رائـد شـرف الديـن

ذكرى عاشوراء ٢٠١٨

قاعة الإمام زين العابدين (ع)

١٥ أيلول ٢٠١٨| العبّاسـية - لبنان

*الترجمة إلى الإنكليزية تحت عنوان: "Hussain's Revolution: Renewed Momentum"

الحمد لأهله والصلاة على أهلها.

ثورة الحسين بن علي(ع) في جوهرها هي ثورة على الظلم والطغيان. ولم يكن هذا الجوهر موضع خلاف أو سجال، بل هو ما يزال نابضا ولم يتأثر بالتقادم أو بتغيّر الأحوال. على العكس، نراه يكتسب زخمًا متجددا. ونرى من المفيد مناقشة ذلك، والبحث في مكامن هذا الزخم: أسبابه، ظروفه الراهنة، تداعياته ومضامينه.

لا تصح مناقشة الإشكالية المطروحة (الزخم المتجدد) دون التمييز بين بُعدَيْ الشكل والمضمون. ويمكننا صياغة السؤال كالتالي: هل تؤثر مراسم الإحياء سلبًا أم إيجاباً على مضمون الحدث؟ أي هل يُسهم في رفع الظلم وتقريب الفرَج؟ أم أنّه يمعن في تأبيد الضعف، وبالتالي إطالة أمد الجور والطغيان؟

يكاد يكون من المستحيل البحث في موقعة الطف دون التأثر ببعدها الإنساني. ومن كتبوا عن الحسين(ع) وثورته بكوا أو تعاطفوا بغض النظر عن جنسهم وعقيدتهم والزمن الذي كتبوا فيه.

يذكر التاريخ أنّ كثراً من القادة استلهموا الحسين في ثورتهم على الظلم، في بلاد المسلمين كما في الهند وفيتنام وغيرهما. وإلى اليوم، نلاحظ أن الثورة الحسينية، بما هي عليه من ثورة قيم وأخلاق، ما تزال مفاعيلها تلهم الكثيرين عبر العالم.

يتفق الباحثون الموضوعيون على أن ثورة الحسين أسهمت بقوّة في تقويض أسس الدولة الأموية، لكنّ مفاعيلها الاجتماعية والثقافية كانت أعمق وأشد تأثيرا. هي أسهمت في إذكاء جذوة الأمل عند المستضعفين في الأرض لأنّ الحسين ورفاقه - بمن فيهم الأطفال، وما فعلته العقيلة زينب(ع) - كان نموذجًا فذّا لكل المناضلين في العالم رجالا ونساءًا. لقد أظهرت الموقعة منذ مئات السنين أن العدالة الاجتماعية لا تستتب إلا بمشاركة المرأة، وأن صوتها لا يقلّ أهميّة عن صوت الرجل.

هناك توافق أيضًا على أن الثورة لم تكن حركة انفعالية أو بنت ساعتها، بل هي منهاج متكامل في مسارها وتفاصيلها ونتائجها. وأستعين هنا بكلام للإمام الصدر، حين يقول: "أمام الضمائر الخائفة أو النائمة، كان لا بدّ من تضحية كبرى توقظ الضمائر وتهزُّ المشاعر. فحادثة كربلاء جاءت في ظروف ملائمة. تهيّأت لهذه الظروف كافة الأسباب، ومكّنت من هذه الظروف عوامل متسلسلة تعود إلى سنوات وسنوات قبل واقعة كربلاء".

ولو تعمقنا في مسألة اصطحاب الأطفال - مثلاً- سيتبيّن معنا أنّه لم يكن أمرًا عابرًا أو متهورًا، لأن حضورهم أزكى عزيمة الثائرين، ومحض الملحمة ذاك البعد العاطفي الإنساني الذي سيبقيها حيّة عبر الأزمان. هو أثبت صلابة العقيدة الحسينية في إحقاق الحق، وأماط اللثام عن معدن خصومه وإيغالهم في الظلم والتوحّش.

يُروَى عن الإمام جعفر الصادق(ع) أنّه يقول: "من بكى أو تباكى على الحسين(ع) وجبت له الجنة". وفي التفسير أن فاعلية هذا الوجوب لا تتحقق كيفما اتفق، ولا يجوز اتيان السيء من الأفعال بشفاعة البكاء على الحسين، فهذه لا تبرر تلك. وحتى يكون للبكاء حسن الجزاء يجب أن يأتي ضمن منظومة قيمية وسلوكية واعية وهادفة. هناك أيضًا أحاديث أخرى فحواها أن البكاء والتّباكي على الحسين(ع) حفظ لهذه الذكرى من النسيان على مرّ العصور، وبالتّالي حفظ أهداف الثّورة، حتّى غدا الإمام الحسين قدوة لكلّ أحرار العالم.

والوقائع التي تلت الموقعة جاءت لتعزّز مأساوية الحدث. كان يمكن أن تُطمس وقائع المعركة وأن تشوّه مراميها لولا ارتدادات الأيام التي تلت، والتي حملت لواءها العقيلة زينب(ع). ولا نجازف لو قلنا أن خلخلة الحكم الأموي بدأت من قصر يزيد بن معاوية بالذات، حين استطاعت زينب أن تظهر مظلومية الحسين وتُبكي نسوة القصر، وتنسف رواية يزيد ومزاعمه حول حقيقة ما جرى في الطف. وفي اليوم الثالث بعد عاشوراء، تقول الروايات أنّه " لم يُرَ باك وباكية أكثر من ذلك اليوم", يوم اجتمع أهل الكوفة لدفن الشهداء. كذا الأمر في المدينة المنورّة التي لم يُر يومٌ أمرّ على أهلها من يوم وصول موكب السبي إليها.

أردت من هذا الاستطراد التاريخي أن أستذكر بعض الأسس للضرورات البحثية، وأعود إلى الإشكالية: ما علاقة الشكل بالمضمون؟ وكيف تؤثر المراسم المتّبعة حاليًا على قضايا الإنسان في القرن الـ٢١؟ ماذا عن اليوم؟ وعن أيّ بكاء نتحدث؟

من المفيد هنا استذكار قول للإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر: "فكما أن أهل الكوفة وأهل الشام كانوا يقتلون الإمام الحسين وهم يبكون، فهناك خطر كبير في أن نُمنى نحن بنفس المحنة ونقتل الحسين ونحن نبكي... البكاء وحده لا يعني أننا غير قاتلين للإمام الحسين."

يلاحظ المتتبع للقضيّة أن مراسم إحياء عاشوراء تتفاوت من بلد لآخر ومن زمن لآخر، ولا يتسّع المجال لعرضها هنا. إنّما هناك ملاحظة عامة وهامة، وهي أن قضية الحسين تأخذ مداها الأرحب أوقات الانفتاح والبحبوبة، وتنكمش في إطار الشيعة الإثني عشرية أوقات التشنج والضيق. كانت على مرّ العصور قضية إنسانية وعالمية يستذكرها المسلم وغير المسلم ويستلهما التواقون إلى الحق والعدل في كل مكان وزمان. وكانت أيضًا موضع خلاف وفتنة هنا وهناك، لا سيّما في أزمنة الانحطاط واليأس، كما هي الحال اليوم. وهذا بالتحديد ما أحرص على التطرّق إليه مع نهاية الحديث.

هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكية الأشهر، يسهب في دوافع اختيار العراق كمنطلق لإعادة رسم موازيين القوى الدّولية. حيث يفسّر أن تركيبة العراق الطائفية وموقعه كخط تماس بين الشيعة والسنّة تجعله الميدان الأمثل لخلخلة المنطقة وإعادة بنائها. والوزير عينه كان يُصرّح للـ Daily Squip منذ سنوات " إنّ طبول الحرب تدقّ بالفعل في الشرق الأوسط، والأصمّ فقط هو من لا يسمعها". وبالفعل أكلت الحروب الداخلية والخارجية الأخضر واليابس في العراق وسوريا واليمن وليبيا وقبلها لبنان... وعسى ألاّ يكون الآتي أعظم!

بدوره، يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل: ليس كل التاريخ مؤامرة، ولكن المؤامرة موجودة في التاريخ، وهو يتابع بأن من لا يشتم رائحة المؤامرة في كل ما فعله الغرب بالشرق الأوسط منذ سايكس بيكو إلى اليوم، فهو لا يفرّق بين التمرة والجمرة.

نحن دأبنا منذ نعومة أظفارنا على استهلاك مقولة أن ضعف المسلمين في تفرقتهم، وأن أعداء الأمة يسعون إلى تفتيتها بهدف تثبيت الكيان الغاصب كقوّة عظمى بين مجموعات قبليّة متناحرة لا تعدو كونها تجمعات من القساة، غلاظ القلوب، لا صلة لهم بالحضارة والمدنية.

كلنا يعلم أن انقسام الأمة بدأ منذ السقيفة، وما كان ذلك بتحريض من جهة خارجية أو بمؤامرة امبريالية، أو ما شابه. كلّنا يعلم أن الفتن والانقسامات اجتاحت الأمة الإسلامية عبر التاريخ. وأنها بلغت أوجها في القرن ٢١ . هي اليوم اشدّ خطرًا في البلاد التي يتجاور فيها السنة والشيعة. لكنّ الطوائف الأخرى ليست في منأى عن الصراع، فالأكراد والمسيحيون والأزيديون والعلويون منخرطون بشكل أو بآخر، أو هُم ضحايا هنا أو هناك.

لست في وارد الترويج لهذا الراي أو ذاك، انّما.... ما علاقة ذلك بمناسبة عاشوراء؟

إذا كنّا متفقين على أن قضية الظلم/العدل هي قضية عالمية زمانًا ومكانًا، فإن الاستلهام الأمثل لعبرة الحسين يكون في إخراجها من قمقم الخصوصية إلى الفضاء الكوني. ومن هذا المنظور بالذات يجب محاكمة مراسمنا وانفعالاتنا.

بتعبير آخر، إلامَ تؤدي المبالغة في التوصيف؟ أليست موقعة كربلاء ملحمة بطولية ومعاناة أشخاص يتألمون ويتأملون، ام هي أسطورة؟ أليست هي موكب إنساني أم موكب خرافي؟ أليست هي رمز للاستلهام والتعلّم أم مادة استرزاق وتحكم بالعباد وغرائزهم وضمائرهم؟

إذا لم نُحسن استلهام الثورة الحسينية في الظرف الدقيق الذي نحن فيه، فمتى نفعل؟

الرياضيات والمنطق وفيزيولوجيا الإنسان لغات عالمية يتقاسمها سكان الكوكب جميعًا. في حين أنّ الأساطير والمرويات والخرافات هي ثقافات محليّة سرعان ما تتلاشى. ومسيرة الحسين قضية إنسانية كاملة متكاملة لها ظروف ومقدّمات وحيثيات ووقائع ونتائج. قوّتها في تكاملها وفي حجّتها ومنهجها، وهي في غنًى عن المحسنات البيانية والتلحين اللفظي. الإستغراق في الإضافات الشكليّة يحبس القضية في آذان المستمعين إلى الراوي ليس إلاّ، وينفّر الآخرين.

الشكل يَئِدُ المضمون!

والسلام.